الباب الثاني

علمه باللغة والأدب وغيرهما

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعراً واسع المعرفة باللغة ولكنهم لا يعرفونه إمامًا من أئمة اللغة في القرن الرابع، كما يتبين فيما يلي:

قدّمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبت رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرتُه من الوهن في بعض أخبارها لم تبين لكم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب. وقد بينت آنفًا أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وهو في سن الثامنة عشرة.

وما روي لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قول الثعالبي: إن أباه رحل به إلى الشام فلم يزل يردده في مكاتبها ... الخ [1]؛ وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضًا.

وقدَّمت كذلك قول الخطيب في تاريخ بغداد: «وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس (أي التاريخ)».

---

(١) انظر ص ٣٤.

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها، ولقَن عن أهل البادية منها، ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا. وقد بلغ في هذا أن عُدّ في عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه.

وبرهان هذه الدعوى على هذا النسق:

١- رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه:

قال ابن الأنباري: «ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي فقال له أبو علي: كم جاء من الجمع على وزن فِعلي فقال حِجْلَى وظِرْبَى جمع حَجَل وظَرِبان. قال أبو علي: فسهرت تلك الليلة ألتمس لهما ثالثًا فلم أجد. وقال في حقه: ما رأيت رجلاً في معناه مثله». وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جنى في مقدمة شرحه الديوان وقال: «ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي هذا فيه لكفاه. لأن أبا علي- على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله- لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده».

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه عُرف بسعة علمه باللغة. ثم شهادته له دليل آخر.

ولما وقع الجدال بين أبي الطيب اللغوي وابن خالَويه في اللغة بحضرة سيف الدولة قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم ونصر أبا الطيب

اللغوي على ابن خالويه [١]. فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على الاعتداد بعلمه ورأيه في اللغة.

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت:

سقى الله أمواهاً عرفت مكانها جُرامَا ومَلكومَا ويذَّر فالغَمرا

فقال أبو الطيب: هو جُراباً، وهذه أمكنة قتلتها علماً وإنما الخطأ وقع من النَّقلة [٢].

وقد ادَّعى الحاتمي أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر بل ناظره في اللغة أيضًا، وادّعى أن أبا الطيب قال له: اللغة مسلّمة لك. فقال: وكيف تسلمها وأنت أبو عُذْرتها وأولى الناس بها، وأعرفها باشتقاقها والكلام على أفانينها، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك [٣].

وفي هذا برهان على اشتهار أبي الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمي تهكماً وسخرية أو كانت قصته كذبا.

---

(١) انظر ص ٩٦.

(٢) انظر ص ١٥٧.

(٣) معجم الأدباء لياقوت: الحاتمي، والصبح ص ٢٩.

ولما نزل عند ابن العميد في أرّجان قرأ عليه كتابًا جمعه في اللغة. قال في الإيضاح: «وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه. ويتعجب من حفظه وغزارة علمه»[١].

وقال الخالديان: «كان أبو الطيب المتنبي كثير الرواية، جيد النقد ...، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها ولا يُسأل عن شيء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر» وقال صاحب الإيضاح: «وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر»[٢].

وقال ابن جنى: «ولقد كان من الحد فيما يعانيه، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه على أسدّ وتيرة وأحسن سيرة».

٢- وقد أُثِر لنا بعض كلامه في اللغة. وذلك قسمان:

مجادلته ابن جنى في مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه. وحسبك بمن يناظر في اللغة والصرف ابن جنى إمام أهل العربية في التصريف، ثم يشهد له ابن جنى الشهادة السالفة. وعندنا من هذه المجادلات أمثلة.

والثاني ما أملاه أبو الطيب نفسُه شرحًا لبعض شعره. وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح. وفيه من التبيين وإيراد

(١) الخزانة ج ١ ص ٣٨٦.

(٢) الصبح ص ٨٠ والخزانة ص ٣٨٩.

الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يُشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة.

وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبيانًا للقارئ:

جاء في شرح البيت:

أحـــاد أم سُـــداس فـــي أُحـــاد ليلتنـــا المنوطـــة بالتنـــاد

«قال أبي الطيب يقال أحاد، وثناء، وثلاث، ورباع إلى عشار في المؤنث والمذكر غير مصروف. والفرّاء يصرفها إذا جعلها نكرات. وكل ما لا ينصرف من الأسماء يُصرف في الشر لأن الصرف الأصل. وهذا الذي يُنسب إليه في العدد فيقال ثُنائي، وثلاثي، ورباعي، وخماسي إلى عشاري. قال أبو النجم:

فـوق الخماسـي قليلاً بفضله أدرك عقـلاً والرهـانُ عملـه

وأنشد:

ضـربت خُماسَ ضـربة عبـشمي أدار سـداسَ ألاّ يـستقيما

وللكميت:

فلـم يـستر يثـوك حتـى رميـت فـوق الرجـال خِـصالا عُـشارا

وللهذلي:

يـصيّد أُحـدان الرجـال وإن يجـد ثُنـاءهم يفـرج بهـم ثـم يـزدر

وأنشدني:

أحـــمّ الله ذلـــك مـــن لقـــاء أحـــاد أحـــاد فـــي شـــهر حـــلال

وحكى ابن السكيت عن أبي عمرو: ادخلوا مَوحد موحَد، ومَثنى مثنى، ومثلث مثلث، ومربع مربع، وكذلك إلى العشرة. وكذلك ادخلوا أحاد أحاد، وثُناء ثناء، وثُلاث ثلاث، ورباع رباع إلى العشرة. قال علي (يعني ابن حمزة راوية أبي الطيب): وقال أبو الطيب: وكان أبو حاتم تبع أبا عبيدة في قوله في كتاب المذكر والمؤنث: «ورباع رباع. ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك». ثم رجع عنه فقال في كتاب الإبل: «ورباع إلى العشرة».

قال أبو الطيب وأما ليلتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد:

وكـل أنـاس سـوف تـدخل بيـنهم دُويهيـة تـصفرّ منهـا الأنامـل

الرواية التي أعرفها خويخية. وكذا أنشده المبرد واليزيدي وثعلب. وأنشدنيه المتنبي دويهية (هذا من قول علي بن حمزة) وقال الأنصاري: أنا جُذَيلها المحكّك، وعُذَيقها المرجّب. قال: وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم: كليب وعمير. قال وما يروى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: أنا هُوَيّ ومعي سلاحي فصغّره.

والتنادي أراد التنادي بالرحيل». أهـ.

وفي شرح البيت:

إذا عرضـــت حـــاجٌ إليـــه فنفـــسُه إلـــى نفـــسه فيهـــا شـــفيع مـــشفّع

قال أبو الطيب: يقال حاجة وحاج وحاجات وحِوَج وعلى غير القياس حوائج. وتقول العرب في نفس منه حوجاء أي حاجة. وأنشدك:

ألا ليت سُوقًا بالكُناسة لم يكن إليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر:

لعمري لقد لبّثتني عن صحابتي وعن حِوَج قِضاؤها من شفائيا

وأنشد لامرئ القيس:

* لنقضي حاجات الفؤاد المعذب *

وأنشد الفراء:

نهار المرء أمثلُ حين يَقضي حوائجَه من الليل الطويل

وزعم الأصمعي أن حوائج مولَدة. قال أبو الطيب: وهي كثيرة على ألسن العرب خرجَتْ عن القياس. قال البصري (على بن حمزة) وأنشدني أبو الطيب للشماخ:

تَقطّع بيننا الحاجات إلا حوائجَ يعتسفن مع الجريّ

قال حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح، وقد ذكر ذلك ابن دريد فقال: حاجة وحائجة وحوجاء». أهـ.

ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه. وإني لراج أن ييسر الله لي عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح إلا أمالي الشاعر

والمقدمات التاريخية التي تُصدّر بها بعض القصائد. وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك [١].

٣- وقد قرئ علي أبي الطيب في مصر كتاب المقصود والممدود لأبي العباس ابن ولاّد، فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات وقد عثرت على رسالة اسمها «التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوي» وأحسبها لعلي بن حمزة البصري جاء في مقدمتها: «قال أبو القاسم: وكان هذا الكتاب أعني المقصور والممدود، قرئ على أبي الطيب بمصر سنة سبع وأربعين وثلاثمائة. فردّ فيه على ابن ولاد أغلاطًا وبيّنها واستشهد عند بعضها. فجمع ردّ أبي الطيب وشواهدَه بعضُ المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج أبي الطيب من مصر. وأضاف إليها أشياء من عنده غلطِ فيها هو، وأشياء أصاب فيها. وكان هذا المدعي سمع هذا الكتاب وغيرَه من ابن ولاد، وعنه سمعته. وهذا المدعي يعرف بأبي الحسين المهلبي. فإذا مرّ من تلك الأغلاط والشواهد شيء في كتابنا عزوناه إلى مستحقه، وبيناه إن شاء الله».

فأما المهلبي هذا فهو أبو الحسن علي بن أحمد المهلبي اللغوي المتوفى بمصر سنة ٣٨٥. وفي أثناء ترجمته يقول ياقوت: «وذكر عليّ بن حمزة البصري النحوي في كتاب الرد على ابن ولاد في المقصور

(١) قد يسر له هذا من بعد فأخرجت الديوان مصححاً على أقدم النسخ وأصحها وعليه ما أثر من شرح عن أبي الطيب. ونشرته لجنة التأليف في العيد الألفي للشاعر.

والمدود، أن أبا (أبي) [١] الحسن المهلبي كان لقيطًا وكان له اختصاص بالمتلقب بالمعز والعزيز المستوليين على الديار المصرية، ومن جلسائهما الخواص، وأدرك دولة كافور الإخشيدي، وله مع أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبى قصة».

وعلي بن حمزة هذا راوية أبي الطيب. وكتابه في الردّ علي ابن ولاّد قد تضمن ردّ أبي الطيب. والذي رواه ياقوت عن علي بن حمزة في الطعن علي المهلبي يوافق مطاعن هذه الرسالة التي نقلت منها النبذ الآتية. فهذه الرسالة تشبه أن تكون لعلي بن حمزة نفسه. ولعلي بن حمزة سبعة كتب أخرى في الرد على اللغويين، يقول ياقوت: رأيتها كلها في مصر [٢].

والقصة التي وقعت بين المهلبي هذا وأبي الطيب في مصر هي كما رويت عن المهلبي نفسه:

«وقع بيني وبين المتنبي في قول العَدواني:

يا عمرو إلاّ تدَعْ شتمى ومنقصتي أضربْك حتى تقول الهامة اسقوني

وذلك أن المتنبي قال: إن الناس يغلطون في هذا البيت. والصواب اشقوني من شقات رأسه بالمشقاة، وهو المُشط. قال المهلبي: فقلت له: أخطأت في وجوه؛ أحدها أنه لم يُرو كذلك، والآخر أنه يقال شقأت

(١) يؤخذ من الكلام الآتي عن المهلبي، أن الذي نبز بأنه لقيط أبوه. فلهذا زدت كلمة أبي في رواية ياقوت.

(٢) معجم الأدباء ج ٥، ص ٢٠٣، ط بيروت.

بالهمزة. وأيضًا فإني أظنك لا تعرف الخبر فيه وما كانت العرب تقول في الهامة إنها إذا لم يُثأر بصاحبها لا تزال تقول اسقوني فإذا ثأروا به سكن»[1].

هذه رواية المهلبي وليس يعنينا أن نناقشها هنا.

وقد قرأتُ كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد الذي ذكرته آنفًا وهو كتاب صغير، فجمعت ما رواه المؤلف عن أبي الطيب في الرد على ابن ولاد وأثبتّه هنا:

«وقال ابن ولاد في باب الشين: وذكر عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر أنهما قالا الشَذوُ لون المسك قال الشاعر:

إن لـك الفـضلَ علـى صُـحبتي ... والمسكُ قـد يستـصحب الرامكـا
حتـى يعـود الـشذْو مـن لونـه ... أسـودَ مـضنونًا بـه حالكـا

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا فقال هو الشِّذو. وقد أصاب المتنبي وغلط ابن ولاد في فتحه.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الطاء): والطُّرقى في النسب من قولهم الطُّرقى والقُعدى، فالطُّرقى أبعدهما والقُعدى أدناهما نسباً.

وهذا ما أخذه عليه المتنبي قبلنا، فقال: الصواب الطرفي بالفاء. وقال ابن الأعرابيّ: يقال فلان أقعد من فلان أي أقل آباء، وأطرف من فلان أي

(١) معجم الأدباء: علي بن أحمد المهلبي.

أكثر آباء. وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد. وقال الأصمعي: يقال فلان بيّن الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجدّ الأكبر. وهو عندهم مدح كما قال الشاعر:

* طرفون لا يرثون سهم القُعدُد [1] *

وهذا الذي حكاه المتنبي مشهور معروف من قول ابن الأعرابي والأصمعي (وهو) الصحيح. وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المهلبي) وكذب في ادعائه وهو من رد المتنبي.

وقال ابن ولاد في هذا الباب (باب الغين) غضبى مائة من الإبل معروفة كقولك هُنيدة. وأنشد:

ومستخلف من بعد غضبى صَريمة فأحرِ به لطول فقر وأحرِيا

وهذا ما رواه المتنبي فادعاه ابن المنبوز (يريد المهلبي أيضًا) فقال: الذي رواه أبو العباس (ابن ولاد) غضني بالنون. وهو خطأ إنما هو غضبي بالباء، وهذا صحيح. اهـ.

ذلكم أبو الطيب في علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها. ومن أجل هذا ترجم له ابن الأنباري في كتابه «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» الذي ترجم فيه لرجال الأدب واللغة والنحو. ولم يذكر غيره من الشعراء إلاّ أبا نواس وأبا تمام وابن المعتز وابن الجهم والمعري وأبا إسحق الغزي.

---

(١) هو لأبي وجزة. وصدره: * أمرون (بكسر الميم) ولادون كل سميدع * .

علمه بغير اللغة والأدب

وأما معرفته بما عدا اللغة والأدب فظننا بأمثاله من رجال عصره ونظرُنا في شعره- يدلاّن على أنه قد سمع وقرأ فحصّل كثيراً من المعارف الشائعة في القرن الرابع.

نجده يمدح محمد بن زريق الطرسوسي فيذكر أمثلة متتالية من القصص الدينية:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلماتِ صِرْن شموسا
أو كان صادفَ رأسَ عازَر سيفُه ... في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لُجّ البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى خاض فيه موسى
أو كان للنيران ضوءُ جبينه ... عُبِدت فكان العالَمون مجوسا

ويقول:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبّر أن المانوية تكذب

ويقول في هجاء كافور:

ألا فتى يورد الهنديَّ هامتَه ... كيما تزولُ شكوك الناس والتُّهَم
فإنه حجة يؤذى القلوبَ بها ... مَن دينه الدهر والتعطيل والقِدم

يشير إلى آراء الدهريين، والمعطلة، والقائلين بقدم العالم.

ويقول في مدح دلّير:

فتمليك دلير وتعظيمُ قدره ... شهيدٌ بوحدانية الله والعدل

يشير إلى قول المعتزلة في التوحيد والعدل وفعل الصالح والأصلح.

فهذا كله دليل على اطلاع الرجل على المذاهب الدينية والقصص. وقد نظم قصيدة في مصر حينما اصطلح كافور وأنوجور بن الأخشيد. فلما أراد أن يُبيّن عواقب الشقاق ساق أمثلة من تاريخ الجاهلية والإسلام:

وإذا كان في الأنابيب خُلفٌ ... وقع الطيش في صدور الصِّعاد
أشمتَ الخُلفُ بالشُّراة عِداها ... وشفَى ربَّ فارس من إياد
وتولّى بني اليزيديّ بالبصرة ... حتى تمزّقوا في البلاد
وملوكا كأمس في القرب منا ... وكطَسْم وأختها في العباد

فقد ذكر انقسام الخوارج، ووقعة ملك الفرس وقبيلة إياد، وما أصاب بني اليزيديّ وطسماً وجديساً.

وقال في مدح ابن العميد:

مَن مُبلغ الأعراب أني بعدهم ... لاقيتُ رِسطاليس والإسكندرا
ولقيتَ بطَليموس دارس كُتْبه ... متملكاً مبتدِيًا متحضرا

والشاعر لا تنجده ذاكرته بهذه الأمثلة وِلاءً إلاّ بعد اطلاع واسع على التاريخ.

ولا ريب أنه أكمل درسه في اللغة واستفاد فنونًا أخرى من مطالعة الكتب، وقد روي أنه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل أن يهجع [1].

وقد مرّ في الكلام على نشأته أنه كان مولعًا بملازم الوراقين يستفيد من دفاترهم.

---

(١) الصبح ص ٥٠.

وفي رواية أبي نصر الجَبلي عن مقتل أبي الطيب أنه كان يحمل كتبه معه في أسفاره ويحرص عليها وكان قد أحكمها قراءة وتصحيحاً [1].

وقد أعرب هو عن شغفه بالقراءة، وأُنسه بالكتب في قوله:

أعزّ مكان في الدُّنى سَرجُ سابح وخير جليس في الزمان كتاب

(١) = ص ٩٨.